نصير الدين الطوسي

حامي الثقافة الاسلامية

وتراث العرب الفكري إبان الغزو المغولي

للأستاذ ضياء الدخيلي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

أما ياقوت الحموي فإنه قد توفي عام (٦٢٦ هـ) أي قبل وفاة الطوسي بـ (٤٦) عاماً ، وفي هذا العهد لم يكن الطوسي قد اتصل بهولاكو ، إذ أنه خرج من سجن قلعة الموت واصطحبه هولاكو في عام ٦٥٤ هـ وإذن فالدارس والحياة العلمية التي يصفها ياقوت كانت في مراغة قبل مجيء الطوسي إليها ، وربما كان الطوسي وقت وفاة الحموي مؤلف معجم البلدان — في طوس حيث كان يطلب العلم .

والغرض أن المراغة كانت مدينة علم وأدب فاختارها الطوسي مقراً لمدرسته . ويقول جورج سارتون في كتابه المدخل إلى تاريخ العلوم : « إن حسن مناخها وصلاح جوها للارصاد الفلكية بصورة ممتازة — شجع الطوسي على بناء مرصده فيها » وقد التف حول الطوسي فيها جمهور من العلماء وطلاب العلم حتى أنه عندما رحل منها إلى بغداد في عام (١٢٧٤ م) ارتحل في جيش جرار منهم . قال ابن شاكر (المتوفى عام ٧٦٤ هـ) في فوات الوفيات (وكان النصير قد قدم من مراغة إلى بغداد ومعه كثير من تلامذته وأصحابه فأقام بها مدة أشهر ومات) .

فالطوسي في جمعه رجال العلم حوله حفظ سلسلة الثقافة الإسلامية في الشرق موصولة الحلق متصلة الأسباب وأبقى منار العلوم مضيئاً لم تطفئه هجمات الأمم الابتدائية ؛ وإذن فأي خدمة عظيمة توازي ما قام به الطوسي رحمه الله ؟

نعم لقد ألب عليه بعض المتعصبين من جهلاء المتفقهين الذين أمسكوا بغشور الدين وخسروا لبابه — لقد أثار عليه حفيظة هؤلاء تشيعه ، ولا ريب أن هذا العامل الذي لا أهمية له في الأوساط الثقافة العصرية — كان في العصور الوسطى ذا أثر في توجيه نقد الناقدين وتسديد سهامهم الزائفة . ولا يهم مؤرخ الحضارة اليوم ما كان يعتنقه الشخص من عقيدة دينية بقدر ما يهمه من آثاره العلمية والأدبية وما أنتجته عبقريته ؛ فإذا وزنا قيمة النصير بهذا الميزان رجحت كفته ، فقد رأيت في تتبعاتي الخاصة مدى اهتمام الغربيين بهذا الفيلسوف الرياضي العظيم في الوقت الذي ترى فيه الرجعيين الجامدين من المتزمتين يكيلون السباب جزافاً لهذا الفيلسوف العظيم تجد كبار مؤرخي الحضارة الإسلامية يمجدون لعظمة العبقرية النادرة في شخص نصير الدين الطوسي وينسبون إليه المعجزات في الرياضيات ويسجلون له الابتكارات والاكتشافات والاختراعات الرائعة فتسخر من هؤلاء الجهلاء الذين تحاملوا على كرامة الطوسي ، وأساؤا إلى سمعة المسلمين في جهلهم بقيم رجال العلم وانصياعهم لدواعي التعصب الذميم . لقد كان أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١ — ٧٥١هـ) يخبط خبط عشواء (رحمه الله وعفى عنه) ، إذ قال في ص ٢٩٧ من الجزء الثاني من كتابه (إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان) .

« وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه (المصارعة) أبطل فيه قوله بقدم العالم وإنكار المعاد ونفي علم الرب تعالى وقدرته وخلقه العالم ، فقام له نصير الألحاد (يقصد نصير الدين الطوسي رحمه الله) وقعد ، ونقضه بكتاب سماه (مصارعة المصارعة) ووقفنا على الكتابين — نصر فيه : أن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض في ستة أيام وأنه لا يعلم شيئاً وأنه لا يفعل شيئاً بقدرته واختياره ولا يبعث من في القبور . وبالجملة فكان هذا الملحد (أي نصير الدين) هو وأتباعه من الملحدين الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » . ومن قرأ كتب الطوسي في علم الكلام آمن أن ابن قيم الجوزية مفتر على الرجل ، وأن كتب الطوسي في الإيمان والعقائد وسلت إلى براين ، ولم يصل إسمها إلى مؤلف إغاثة اللهفان إلى الباطل والبهتان . وقد شرح كتاب الطوسي تجريد العقائد جماعة من العلماء والمتكلمين الأفاضل وفي مقدمتهم المولى علي القوشجي الشافعي

من سمرقند والعلامة الحلي من العراق . ثم يستمر ابن الجوزية في هذيانه فيقول : (والفلسفة التي يقرؤها أتباع هؤلاء اليوم هي مأخوذة عنه (أي عن الطوسي) وعن إمامه ابن سينا . وبعضها عن أبي نصر الفارابي وشيء يسير منها من كلام أرسطو وهو مع قلته وغثاثته وركاكة ألفاظه كثير التطويل لا فائدة فيه . وخيار ما عند هؤلاء فالذي عند مشركي العرب من كفار قريش وغيرهم أهون منه .. » ولا أدري كيف حكم بركاكة ألفاظ أرسطو في لغته اليونانية التي أعتقد أنه يجهلها !

ولنعد إلى حديث المستشرق العلامة الفرنسي سيديو في كتابه تاريخ العرب العام .

قال (ص ٢٦٩ من تعريب عادل زعيتر) دخل المغول بغداد عنوة فانتهبوها في سبعة أيام فحرقوا بعض المخطوطات الثمينة التي وجدوها في المكتبات والمدارس وألقوا بعضها الآخر في نهر دجلة فأصبحت مياهه من مدادها على حسب رواية مؤرخ عربي مبالغ فيها .

ذهب المغول بما اشتملت عليه مدينة المنصور بغداد من الكنوز العجيبة مع أنهم سلبوا بخارى وسمرقند ومرو ونيسابور وأصفهان فيما مضى ، وخنق المستعصم بأمر هولاكو فجرت جثته الدامية تحت أسوار بغداد التي كانت شاهدة على عظمة العباسيين وانحطاط هؤلاء وذلهم .

واعمى العرب بين تلك الثورات (الداخلية) المتصلة — أمام براثن الشمال والترك والمغول ولم يبق لهم كيان سياسي خارج جزيرة العرب أي توارروا من مسرح تاريخ أمم الشرق ؛ بيد أن الأثر العظيم الذي طبعوا به الحضارة لا يزال ظاهراً ، ولم يؤد ما وقع في آسيا من الانقلابات إلى غير تأييده بأسطع بيان ؛ فقد رأينا أن ملكشاه السلجوقي اقتبس من مدرسة بغداد إصلاح التقويم الفارسي ، وأن محموداً الغزنوي اتخذ مشاوراً له ذا التأثير العظيم في عصره البيروني العالمي البيروني .

ولما ظهر هولاكو المغول الذي لا يعرف كيف يصون من اللهب الآثار الرائعة التي جمعت بفضل ذوي اليسار أذعن لنفوذ نصير الدين الطوسي فأذن لهذا الرياضي الشهير في إقامة مرصد لهم بمراغة .

ولما أصبح أخوه (كوبلاي) عاهل الصين نقل إلى مملكة ابن السماء معارف العرب . ولما مضى قرنان قامت على أنقاض الدولة المغولية دولة تيمورلنك الذي اعتقد وهو على رأس الترك الشرقيين أنه مرسل من الله ليملك آسيا بأسرها فخلفه ابنه شاهرخ وحفيده (ألوغ بك) فعد هذان الأميران ممثلي المدرسة العربية الأخيرين ، ثم كان للهندوستان التي أثارها علم البيروني منذ عهد أصحاب غزنة بابن الأخ الصغير لألوغ بك والمؤسس لدولة المغول في الهند (بابر — كان للهندوستان حافز متمر إلى ثقافة العرب (في عهد بابر) انتهت شهادة المستشرق سيديو للعرب .

ولنصغ إلى شهادة مستشرق آخر هو السنيور كرلو نلينو الذي كان أستاذاً بالجامعة المصرية وبجامعة بلرم بإيطاليا (قديماً) فقد جاء في كتابه (علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى) وهو ملخص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية ، وقد طبع الكتاب بمدينة روما سنة ١٩١١ م .

قال نلينو : « أما كتب العرب الفلكية فيجوز تقسيمها إلى أربعة أنواع ؛ الأول ، الكتب الابتدائية على صفة مدخل إلى علم الهيئة الموضح فيها مبادىء العلم بالإجمال ، ودون البراهين الهندسية كالجاري في أيامنا في كتب السموغرافيا — ومن هذا النوع كتاب التذكرة لنصير الدين الطوسي وكتابه غير مطبوع ، ومنها الملخص في الهيئة للجغميني المتوفى سنة ٧٤٥ هـ (الموافق ١٣٤٤ م) طبع في إيران مع شرح قاضي زادة الرومي المتوفى في نحو منتصف القرن التاسع [١] .

النوع الثاني ، الكتب المطولة المستقصى فيها كل العلم المثبتة لجميع ما جاء فيها بالبراهين الهندسية المتضمنة أيضاً لكافة الجداول العددية التي لا غنى عنها في الأعمال الفلكية وهذه

(١) لقد سبق لي أن كتبت مقالا في الرسالة الغراء في العدد (٧٨٨) بعنوان جهود العرب المنسية في الفلك وبوفقه اجتهدت أن أعثر على ترجمة الجغميني فلم أنجح وكذلك لم أعرف تاريخ وفاته حتى أن حاجي خليفة نفسه في كشف الظنون (كتابه) — أيضاً لم يعثر على تاريخ وفاة الجغميني فوضع مكان التاريخ أسفاراً ولم أدر أين عثر هذا المستشرق الايطالي نلينو — على تاريخ وفاة الجغميني ولا شك أن في مكتباتهم من المصادر المخطوطة ما ليس لدينا منه شيء .)

الكتب على منوال كتاب المجسطى لبطليموس فنهـا تحرير المجسطى لنصير الدين الطوسى ونهاية الإدراك فى دراية الأفلاك لقطب الدين محمود بن مسعود الشيرازى (وهو تلميذ نصير الدين)

قال نلينو و (النوع الثالث) الكتب المعدة لأعمال الحساب والرصد فقط السماة أزياجاً أو زيجات أو زيجة ، ولفظ زيج أصله من اللغة البهلوية التى كان الفرس يستخدمونها فى زمن الملوك الساسانيين [1] يقول نلينو فى هذه اللغة زيك معناه السدى الذى ينسج فيه لحمة النسيج ، ثم أطلق الفرس هذا الاسم على الجداول العديدة التى يبنى عليها كل حساب فلكى مع إضافة قوانين عملها واستعمالها مجردة فى الأغلب عن البراهين الهندسية . ومنها الزيج الصابى لمحمد بن جابر البتانى المطبوع بروما فى ثلاثة أجزاء ، وكتب أخرى عديدة (أقول ومنهـا الزيج الايلخانى للطوسى) .

وقد ذكر نلينو نصير الدين فى عدة مواضع من كتابه فقال ص ١٩٨ إن أحد علماء القرن السابع للميلاد أعنى سلمسيوس الفرنسى عثر على اسم أحد علماء الفلك البابليين فى شرح نصير الدين الطوسى على كتاب الثمرة لبطليموس فزعم الطوسى أنه منجم بابلى صاحب كتاب يونانى ذائع الصيت وموضوعه صور الوجوه ، ألفه فى النصف الثانى من القرن الأول للمسيح .

وأثنى نلينو على الطوسى ص ٢٣٦ فقال إن المستعمل الآن فى أيامنا تسمية الضلع المقابل للزاوية القائمة (وتراً) وهـذا الاستعمال قد سبقنا إليه الطوسى فى كتابه تحرير أصول اقليدس فى الهندسة . وقال نلينو ص ٢٤٤ ومما يستحق الذكر أن العرب توصلوا فى النصف الثانى من القرن الرابع إلى إثبات تناسب جيوب الأضلاع لجيوب الزوايا المقابلة لها فى أى مثلث كروى ، بل وضعوا هـذه القاعدة أساساً للطريقة التى سموها (الشكل المغنى) فى حل المثلثات الكروية . قال نصير الدين الطوسى فى كتاب الشكل القطاع المطبوع فى القسطنطينية سنة ١٣٠٩) الخ وليس هنا مقام بيان ما خلد الطوسى من آثار رائعة فى الهندسة وعلم المثلثات وباقى الرياضيات فقد أفردت لذلك مقالا مستقلا .

إنما نقتصر فى حديثنا اليوم على جهود الطوسى فى مرصد مراغة وفى علم الفلك والهيئة — فقد كانت حديث المستشرقين ومؤرخى الحضارة الإسلامية العربية ولم نجد من ضرب صفحاً عن ذكره أو ولغ فى ذمه إلا من أعماه التعصب الذميم

الحق أن الطوسى رحمه الله من مفاخر الثقافة العربية ومن العقول الجبارة التى عمرت الأوساط العلمية بنتاجها الخصب ، فازدهر تاريخ الشرق الأوسط . وقد أنقذ الطوسى منار العلوم بعد أن هددته عاصفة المغول وكادت تنطمس أنواره وتنمحى آثاره ؛ فهو الذى منع شر المغول عن الفلاسفة ورجال العلم وأنفق واردات الأوقاف الإسلامية فى بناء حياة علمية جبارة فى مراغة بقيت آثارها فى المكتبة العربية وكم من نفس أحياها باستنقاذها من سيوف التتار ، وكم من قلب أحياه بالعلم .

وانصغ إلى الأستاذ فيليب حتى يحدثنا فى كتابه (تاريخ العرب) ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

وإن هولاكو بعد تخريب بغداد بسنة شرع عام ١٢٥٩ يشيد بقرب بحيرة بورمية مرصد مراغة العظيم ، وقد كان أول مدير له نصير الدين الطوسى الشهير (نقلا عن ابن العبرى ص ٥٠٠ ، وعن جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله) .

وفى هذا الرصد نظم جداول فلكية جديدة سماها (الزيج الايلخانى) إذ ألفه على شرف هولاكو أو خانات المغول (أى ملوكهم) وقد ذاعت الجداول وأصبحت مألوفة فى جميع آسيا حتى فى الصين ، وأن آثار هذا المرصد القصير العمر لا تزال قائمة حتى الآن (١٩٣٧ م) وبالقرب منها مكتبة أسسها هولاكو أيضاً ، وقد قيل إنها كانت تحتوى ٤٠٠٠٠٠ مجلد ، وأكثر هذه الكتب كان قد نهبه جيوش المغول فى سورية والعراق وإيران

وقال فيليب حتى ص ٦٨٣ : لقد حافظ العرب بعد منتصف القرن الثالث عشر على قيادتهم للعلم من الفلك والرياضيات

(١) كان ابتداء الدولة الساسانية سنة ٢٢٦ م أى قبل الهجرة بثلاثة وست وتسعين سنة شمسية وكان انقراضها سنة ٦٥٢ م (كذا يقول نلينو) .